

الفصل الأول

الإطار العام للدراسة

- مقدمة -
- الدراسات السابقة -
- أهداف الدراسة -
- ماهية المشكلة -
- أهمية الدراسة -
- حدود الدراسة -
- منهج الدراسة -
- مفاهيم الدراسة -
- خطة الدراسة -

الفصل الأول الإطار العام للدراسة

مقدمة :

يعتبر الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن، الصادر في أعقاب الثورة الفرنسية /١٧٨٩/ نقطة الانطلاق لصياغة نظرية عامة متكاملة للحريات العامة، إلا أن المبادئ التي تضمنها هذا الإعلان والمفاهيم التي اعتمدها لم تولد من العدم، ولم تنشأ دفعة واحدة، وإنما كانت عبارة عن خلاصة لتطور تاريخي طويل، له جوانبه الواقعية والفكرية والقانونية، وتبع هذا الإعلان تطور في العلوم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفلسفية والتربوية، وظهر كثير من النظريات السياسية كان أولها نظرية " الحق الإلهي " وما تبعها من نظريات " العقد الاجتماعي " و " الليبرالية " و " الراديكالية " و " الاشتراكية ". ومع ذلك بقيت الحرية الإنسانية مفهوماً فلسفياً مجرداً من أهم القضايا، التي تشغل البشرية ومفكرها وفلاسفتها، بمختلف مدارسهم واتجاهاتهم ومذاهبهم المتعارضة والمتناقضة والمتاحرة. فالحرية بلا ريب من أقدم المشكلات الفلسفية وأعقدها، فقد واجهت الباحثين من قديم الزمان، وما برحت تؤرق مفكرى اليوم، كما أرقت من قبل مفكرى الأمس. (١) ؛ ولذا يجمع الباحثون على أن موضوع الحرية من أعقد الموضوعات التي درستها الفلسفة على الإطلاق، وأكثرها إثارة للجدل والنقاش، منذ أقدم العصور، حتى عصرنا الحاضر (٢) ؛ إذ لا يمكن أن تخلو حركة عقائدية، أو تنظيم سياسي، أو دين سماوي، من شعارات الحرية، ومن هنا لا عجب أن عدما " فيليب فينكس " فى كتابه " فلسفة التربية " إحدى العلامات المميزة لطبيعة الإنسان إذ يقول : " لكى يكون الفرد إنساناً يجب أن يكون قادراً على اختيار ما سيكونه، وما سيقوم به، لا أن يتبع، تبعية مجردة، أوامر الضرورة الفطرية أو الآلية" (٣)؛ من أجل ذلك أصبحت قضية الحرية من أكثر القضايا المطروحة فى عالمنا المعاصر، بل إنها من أكثر القضايا إلحاحاً، فماتزال تتبوأ عرش المشكلات الفلسفية والتربوية التى يعالجها الفكر الإنسانى. فالحرية إحدى القيم الإنسانية الكبرى ودعامة هامة من دعائم الشخصية، الأمر الذى حدا برابطة التربية الحديثة الإنجليزية إلى إتخاذ مفهوم الحرية موضوعاً عاماً لمؤتمر من

(١) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧١، ط ٣ ، ص ١٠.

(٢) زكى نجيب محمود : الحبر الذاتى، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٧.

(٣) فيليب هرفينكس : فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب النجيجى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤١٢ - ٤١٣.

مؤتمراتها الدولية، عقدته في مدينة " تشلتهمام " Cheltenham سنة ١٩٣٢/شارك فيه كثيرون من الفلاسفة والمربين والمؤرخين والكتّاب من شتى أقطار العالم.(١) ومن ناحية أخرى نجد أن الحرية لم تعد مجرد مفهوم فلسفي أو سياسي أو أخلاقي أو تربوي، يجرى على أقلام الفلاسفة وعلماء الأخلاق والتربية، فحسب، بل أصبحت القضية الأولى التي يهيم بها الفيلسوف والسياسي ورجل الصحافة والإعلام، فضلاً عن المربي وعالم الأخلاق. فموضوع الحرية من بين الموضوعات القليلة التي اشتركت في دراستها علوم متعددة إذ يضرب بجذور عميقة في الفلسفة والدين والاجتماع وعلم النفس والتربية والقانون والبيولوجيا ... الخ.(٢)

الدراسات السابقة :

من الضروري للباحث العلمي أن يستعرض البحوث التي سبق القيام بها في مجال بحثه؛ وذلك للتعرف على أهم اتجاهات هذه البحوث ومدى ما وصلت إليه من تطوير لموضوع البحث وأيضاً للوقوف على أهم نتائج هذه البحوث لاتخاذها نقطة بداية للبحث الحالي. ويرى الباحث أن الدراسات السابقة تدور من حيث المنهج حول منهج التحليل الفلسفي باستثناء دراسة " بدر "؛ التي استخدم فيها المنهج التاريخي. وسوف يتم هنا تناول هذه الدراسات من خلال المناهج المستخدمة فيها؛ لنتبين مدى قربها، أو بعدها، من مجال بحثنا، لذا قسم الباحث الدراسات السابقة نوعين من الدراسات : دراسات سابقة لمفهوم الحرية فلسفياً، وأخرى للأبعاد التربوية لهذا المفهوم.

أولاً : الدراسات الفلسفية لمفهوم الحرية :

١ - مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث * :

في هذا البحث تناول الباحث "مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث " فأظهر، في المقدمة، أهمية هذا الموضوع، وسبب تحديده في القرن التاسع عشر؛ الذي هو نقطة تحول في تاريخ الأمة العربية. واستهدفت الدراسة التعرف على تصور الفكر العربي الحديث لمفهوم الحرية من خلال آراء بعض المفكرين العرب المحدثين من أمثال : (رفاعة الطهطاوي) و (جمال الدين الأفغاني) و (محمد عبده) و (شليبي شميل) و (قاسم أمين) و (فرح أنطون) و (عبد الحميد

(١) ماك كالستر : نشأة الحرية في التربية، ترجمة أمين مرسى قنديل، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥١، من مقدمة المؤلف.

(٢) زكي نجيب محمود : الجبر الذاتي، مرجع سابق، ص ٧.

* سليم بركات : مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث ، رسالة دكتوراه منشورة، كلية الآداب، جامعة دمشق، نشر وتوزيع دار دمشق، ١٩٨٤.

بن باديس) و (خير الدين التونسي). وقد استخلص الباحث من آراء هؤلاء المفكرين تيارات ثلاثة :

أولها : تيار التغيير فى ضوء معطيات الغرب.

والثانى : تيار سلفى عقلانى.

والثالث : تيار علمى.

وفى الفصلين الأخيرين عن الحرية الاجتماعية والسياسية بين الباحث معطيات الواقع الاجتماعى السائد فى تلك الفترة، مبرزاً الصعاب التى صادفها المفكرون العرب، حين شأوا العمل فى أجواء يخيم عليها الظلم والجهل، فمن ظلم الاستعمار إلى ظلم الحكام، إلى ظروف التخلف، التى كانت تفتك بجماهير الأمة العربية، وانتهى الباحث إلى وصف هؤلاء المفكرين بأنهم مشاعل نور فى ظلام حالك. وفى الفصل الأخير من الرسالة، حدد الباحث ما تعنيه كلمة "سياسة" عندنا، وعند غيرنا من الأمم، مبيناً صراع المدرستين السياسيتين "الليبرالية" و "الاشتراكية" ومدى تأثيرهما فى الفكر العربى الحديث، وأن ثمة ثلاثة تحديات أساسية تواجه مفكرينا العرب وهى : فكرية العصور الوسطى، والسلطة العثمانية، والحضارة الغربية وأطماعها الاستعمارية، وقد وجد أن المفكرين العرب وقفوا فى وجه هذه التحديات وقاوموها بمنهج عربى، بغية الخروج منها باتجاه عالم الاستقلال والحضارة. وختم الباحث بحثه بأن تعاليم الليبرالية هى الطابع العام لمجتمع القرن التاسع عشر، وخلص من دراسته كلها إلى أن الإنسان العربى أحوج ما يكون إليه الآن لتحقيق حريته، هو تحقيق قوميته والعودة إلى ذاته لبحث حقيقة هذه الذات، وحقيقة العالم من حوله؛ ليعرف موقفه الحقيقى، ويدرك حقيقة ذاته وأنه لا بد لمن أدرك ذلك أن يقلع عن التعلق بما ليس خليقاً بالإنسان بوصفه إنساناً. والكلمة الأخيرة فى الرسالة كلها هى أن الوعى بقضية الحرية هو منبع الحرية.

٢- مشكلة الحرية فى الفكر الإسلامى الخالص* :

تتألف هذه الدراسة من قسمين، تناول الباحث فى القسم الأول منها مشكلة الحرية عند العرب قبل الإسلام مستعرضاً آراءهم المختلفة ثم بين رأى السلف الصالح فى المشكلة، ومذهب القائلين بالجبر، والقائلين بالقدرة والاختيار، وبعد ذلك تناول الباحث المشكلة لدى الفرق الإسلامية، فعرض لمشكلة الحرية لدى المعتزلة، متكلماً بالتفصيل عن أصولهم الخمسة، بالإضافة

* فاروق أحمد حسن، مشكلة الحرية فى الفكر الإسلامى الخالص، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية

إلى مشكلة الحرية لدى الأشاعرة. وقد استهدفت الدراسة إبراز أن الحرية الحقّة لا يمكن استخلاصها إلا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ومن أجل ذلك تناول الباحث في القسم الثاني من بحثه مفهوم الحرية في الفكر الإسلامي الخالص مؤكداً على أسس مفهوم الحرية ومقوماتها من "اختيار واستطاعة وعلم" وبعد ذلك تناول مفهوم القضاء والقدر في القرآن والسنة، مؤكداً على مفهوم "الابتلاء"، وقد أشار الباحث، في نهاية بحثه، إلى أن الحرية الحقّة في الإسلام لا يمكن أن تقوم ولا تؤسس بدون عقيدة.

٣- مشكلة الحرية في الفلسفة الوجودية* :

استهدفت الدراسة التعرف على مفهوم الحرية في الفلسفة الوجودية باعتبارها من أهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة. وقد حاول الباحث أن يبرهن، في بداية دراسته، على أن الفضل في إظهار مشكلة الحرية إلى حيز الوجود لا يرجع إلى الفلسفة الوجودية، فالمشكلة قديمة قدم التفكير الفلسفي؛ بل يمكن القول بأن هذه المشكلة قد سبقت التفكير الفلسفي في الظهور، ومن ثم قدم الباحث عرضاً تاريخياً موجزاً لمشكلة الحرية في الفلسفة وبين الدور الذي قامت به هذه المشكلة لدى فلاسفة الإسلام الذين أثاروا هذه المشكلة تحت عنوان "الجبر والاختيار" وبعد ذلك بدأ الباحث يعرض المشكلة لدى الفلاسفة الوجوديين، ويبين مكانة الحرية لديهم، وقد اختار الباحث ثلاثة فلاسفة من أقطاب الفلسفة الوجودية وهم "كيركيغورد" و"كارل يسبرز" و"مارتن هيدغر" وقد راعى الباحث في اختياره لهؤلاء الفلاسفة ليكونوا موضوعاً للدراسة، أن يكونوا ممثلين للاتجاهين الكبيرين في الفلسفة الوجودية، وهما: الاتجاه الديني المؤمن، والاتجاه الوجودي الملحد.

٤- مشكلة الحرية في الفكر الفرنسي المعاصر* :

استهدفت الدراسة معرفة تصور الفكر الفرنسي المعاصر في فترة زمنية معينة، هي الفترة التي تستغرق السنوات السابقة للحرب العالمية الأخيرة، والتي تمتد إلى ما بعد الحرب، وذلك بغية أن يبين الباحث كيف كانت هذه المشكلة في الفكر الفرنسي السابق على الحرب مباشرة، وكيف تطور هذا الفكر، بمقتضى عوامل متعددة، فأدى تطوره إلى قيام أزمة أنتهت بظهور فلسفة جديدة للحرية، هي فلسفة "جان بول سارتر" وتقويض الفلسفة البرجسونية، وهي الفلسفة التي كانت سائدة

* سعيد عبد العزيز محمد الصادق حباير : مشكلة الحرية في الفلسفة الوجودية، رسالة ماجستير غير

منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٦٧.

* حبيب إسكندر الشاروني : مشكلة الحرية في الفكر الفرنسي المعاصر، رسالة ماجستير منشورة، كلية

الآداب، جامعة الإسكندرية، نشر وتوزيع دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

فى فرنسا، ومن أجل ذلك تناول الباحث مفهوم الحرية فى الفلسفة المعاصرة، بادئاً بفلسفة "برجسون" ونظرية الحرية وكيف أن الحرية لدى "برجسون" عبارة عن تحرر أو مجموعة من الحريات، ولذا صار لزاماً أن يتكلم الباحث عن حريات لا عن حرية، فقد رأى أن كل شئ فى البرجسونية يؤدى إلى الحرية، وبعد ذلك انتقل الباحث من "برجسون" إلى "سارتر" فوجد فى نظرية "سارتر" آراء جديدة فى الحرية خصوصاً وأن "سارتر" قد ربط بين مقولة الحرية وباقي مقولات الفلسفة الوجودية.

ثانياً : الدراسات التربوية :

وبعد أن تناول الباحث الدراسات الفلسفية لمفهوم الحرية يقدم الآن الدراسات التربوية للحرية.

٥- مفهوم الحرية فى الفكر الإسلامى وأثره فى التربية الإسلامية* :

استهدفت الدراسة التعرف على تصور الإسلام لمفهوم الحرية من خلال التربية، فعرض الباحث لمفهوم الحرية فى القرآن والسنة، وموقف مفكرى الإسلام من هذه المشكلة، فبيّن آراء الجهمية أنصار الجبرية المطلقة، والقدرية أنصار الحرية المطلقة، كما عرض آراء الأشاعرة والفلاسفة المتصوفة أنصار الحرية المعتدلة، وفى الفصل الثانى تحدث عن الحريات الأساسية فى الإسلام مبيّناً أنواعها : حرية التفكير والتعبير، وحرية التعليم والبحث العلمى، الحرية الدينية، وأخيراً الحرية السياسية. كذلك تناول الباحث فى الفصل الثالث "مفهوم الحرية والمعرفة الإنسانية فى الإسلام" فبيّن وسائلها وناقش طبيعتها والطرق المؤدية إليها، بالإضافة إلى بيان وحدة المعرفة وتكاملها فى الإسلام، حيث ناقش، بعد ذلك، مفهوم الحرية والطبيعة الإنسانية فى الإسلام؛ فعرض للاتجاهات المختلفة فى دراسة الطبيعة الإنسانية، متقللاً بعد ذلك إلى الفصل الخامس "مفهوم الحرية والقيم الخلقية فى الإسلام" وقد حاول الباحث أن يبرهن فى هذا الفصل أن التربية عمل أخلاقى حر؛ ومن أجل ذلك ناقش عناصر الحياة الخلقية فى الإسلام التى تتمثل فى الإلزام، المسؤولية، الجزاء. وفى الفصل السادس والأخير تناول الباحث تربية الإرادة، مبيّناً معنى الإرادة وأسباب ضعفها ووسائل تقويتها، حيث اتضح له أنه لا يمكن أن تتم التربية الخلقية إلا بتربية الإرادة الخلقية القوية وتربية مثل هذه الإرادة تتوقف على استخدام تلك الوسائل الخاصة بهذه التربية، وخلص الباحث من دراسته كلها إلى ضرورة قيام التربية الإسلامية على الأسس الإيمانية

* أحمد عبد ربه رباح : مفهوم الحرية فى الفكر الإسلامى وأثره فى التربية الإسلامية، رسالة دكتوراه غير

والعقيدية عن طريق صقل هذه الأسس في نفوس البشر، ومن أجل أن يتضح هذا الجانب في الفلسفة التربوية أشار الباحث إلى ضرورة أن تتناول العقيدة الإسلامية والفكر التربوي قضايا الكون والوجود والطبيعة الإنسانية والقيم والمعرفة، أي المباحث الأساسية في الفلسفة.

٦- المضامين التربوية عند الفلاسفة الوجوديين* :

استهدفت الدراسة الكشف عن حقيقة الوجودية بعيداً عن التعميمات والعناوين الجاهزة التي تطلق عليها، واستخلاص المضامين التربوية من هذه الفلسفة. ومن أجل ذلك تناول الباحث في الباب الأول نشأة الفلسفات الوجودية وتطورها، ثم تحدث عن المعرفة والوجود، عارضاً صورة الإنسان، من خلال بعض مقولات الفلسفة الوجودية، مثل (الحرية، القلق، الموت) أما الباب الثاني الذي جاء بعنوان (المضامين التربوية) فقد تناول، في الفصل الأول منه، الأهداف التربوية، حيث أشار إلى أن الهدف العام هو مساعدة الفرد لكي يكون وجوده وجوداً أصيلاً، ثم عرض المضامين التربوية لمشكلتي الوجود والمعرفة وطبيعة الإنسان، فبين علاقة القلق بالتربية، الموت والتربية، الجسم والتربية، وأخيراً الالتزام والتربية. وفي الفصل الرابع والأخير عن التربية الخلقية، بين الباحث أن السلوك الخلقى لا يتأتى عن طريق المعرفة وفهم مقومات ذلك السلوك وأصوله، فثمة كثير ممن يدعون الفضيلة ويعرفون معرفة علمية أبعادها ووسائل تحقيقها لا يسلكون سلوكاً خلقياً سليماً؛ وذلك لأنهم لم يتدربوا على فنون ذلك السلوك وتفصيله تدريباً علمياً، في مواقف الحياة المتباينة، ولا ينفى هذا أن المعرفة الخلقية مفيدة، بل هي جوهرية في الإتيان بالسلوك الخلقى السليم، فمن شروط السلوك الخلقى وعى صاحبه به وإدراكه مقوماته وأهدافه ووسائله. وخلص الباحث من بحثه إلى أن المجتمعات العربية تحتاج إلى التربية الوجودية، حتى تتغير سمات هذه المجتمعات، تلك السمات التي حالت دون تقدمه، ودون وعيه بذاته وبمصيره.

٧- التربية لدى أنطون سيميونوفيتش ماكارنكو* :

استهدفت الدراسة تبيان دور "ماكارنكو" في تطوير الثقافة التربوية العالمية وإمكانات الاستفادة منها في حاضرنا ومستقبلنا. وقد قام الباحث بتقديم عرض لحياة "ماكارنكو"، مع تقديم شرح للظروف التاريخية والسياسية التي سادت عصره، وأثرت في ميلاد أفكاره وانتشارها، وبعد ذلك انتقل الباحث إلى عرض ما قدمه "ماكارنكو" في المجالات الثقافية الأخرى، ولا سيما في

-
- * أحمد عطية أحمد السيد : المضامين التربوية عند الفلاسفة الوجوديين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة عين شمس، ١٩٨٩.
 - * حكمت بدر : التربية لدى أنطون سيميونوفيتش ماكارنكو، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة دمشق، ١٩٩١.

ميدان الأدب، بمختلف أنواعه (رواية ، مسرح ... الخ) وطرائقه. كما أشار الباحث إلى المنطلقات الفكرية التي شكلت أرضية فهمه وأعماله وفلسفته التربوية، التي ساعدت في قيام فكره النظري والتطبيقي، مبيناً الخطوط الأساسية للتعاليم التربوية المكارنكية. وخلص الباحث من بحثه إلى أهمية دراسة أفكار مكارنكو معلماً تربوياً انتشرت أفكاره في العالم بشكل عام والقطر العربي السوري بشكل خاص، حيث أكد الباحث تأثر الفلسفة التربوية والاجتماعية في المجتمع العربي السوري بأفكار مكارنكو في مجال التربية وفق المبدأ الجماعي ومن خلال منظمة طلائع البعث (المنظمة التربوية السياسية لسائر أطفال القطر) والتي تسهم بجزء أساسي في عملية التحول الاجتماعي؛ وذلك عن طريق مناشطها التربوية والسياسية، على مستوى السلوك المجتمعي، ودوره في عملية التفاعل الاجتماعي، كالمهرجانات السنوية القطرية والأنشطة الصيفية، في إطار المعسكرات والأنشطة اللاصفية أي المدارس التطبيقية، التي ترعى الأطفال، ضمن إطار علمي، وتهدف جميع الأنشطة إلى بناء الإنسان العربي، بعد أن تلقى تربية مماثلة، في رياض الأطفال، التي تستند أيضاً على مبدأ التربية الجماعية التي نادى بها مكارنكو.

٨- معنى الحرية ومكانتها في فلسفة جون ديوى التربوية *

استهدفت الدراسة توضيح موقف "ديوى" من الحرية، والاستفادة منه في تطوير المفاهيم والقيم القديمة للمجتمع المصري؛ ومن أجل ذلك قام الباحث بتقسيم بحثه إلى ثلاثة أبواب، تناول الأول منها فلسفة "ديوى" ومكان الحرية فيها، ومدى ارتباط تصور الحرية بجوانب فلسفته في الأخلاق والفرد والمجتمع والسلطة. أما الباب الثاني من البحث فقد جاء عرضاً لتطبيق الحرية في ميادين الحياة الإنسانية مثل الديمقراطية والاقتصاد والسياسة والفكر. وفي الباب الثالث ناقش الباحث الحرية في التربية الخلقية والديمقراطية والتربية وأخيراً السلطة في التربية. وفي الخاتمة أشار الباحث إلى أن مفهوم الحرية عند "ديوى" هو أساساً مفهوم تربوي متكامل، يربط بين جوانب فلسفته في توافق وانسجام.

* موريس ميخائيل أسعد : معنى الحرية ومكانتها في فلسفة "جون ديوى" التربوية، رسالة ماجستير، غير

٩- أثر البراجماتية على الفكر والتطبيق التربوي في مصر* :

استهدفت الدراسة تبيان أثر الفكر التربوي البراجماتى على الفكر التربوي المصرى، ومعرفة مدى انتقال الأفكار التربوية البراجماتية إلى النظام التعليمى فى مصر، على المستوى النظرى الرسمى، من أجل ذلك أشار الباحث إلى تجارب طبقت المنهج والطريقة فى :

- ١- الفصول التجريبية .
- ٢- المدارس النموذجية .
- ٣- تجربة مدرسة المنايل وشبهاتها.

كما أشار إلى تجارب أخرى راعت المنهج، دون الطريقة فى :

- ١- مدارس أولية ريفية .
- ٢- تجربة المدارس الأولية النموذجية .
- ٣- تجربة المدارس الأولية الراقية .
- ٤- تجربة المدارس الإعدادية العملية.

وكان من نتائج البحث وتوصياته أن عارض الباحث نقل الفلسفة البراجماتية إلى المجتمع والتربية فى مصر، انطلاقاً من حرصه على المحافظة على القيم المصرية النبيلة.

علاقة الدراسة الراهنة بالدراسات السابقة :

فى ضوء استعراض الدراسات السابقة يتضح أن الباحث راجع نوعين من الدراسات، نوعاً فلسفياً اهتم أصحابه بدراسة مفهوم الحرية داخل إطارها الفلسفى بوصفها إحدى مشكلات الفلسفة ونوعاً تربوياً اهتم أصحابه بدراسة بعض المفاهيم والشخصيات وآرائهم التربوية.

وبالنسبة للدراسات التى تناولت مفهوم الحرية فلسفياً تتضح أهميتها فى أنها ألقت الضوء على طبيعة مفهوم الحرية، وخاصة دراسة (حباتر والشارونى) إذ أفاد منهما الباحث فى دراسته لمفهوم الحرية فلسفياً كما أفاد من القواعد المنهجية المتبعة فى هذه الدراسات. أما فيما يخص الدراسات التربوية لمفهوم الحرية فتكمن أهميتها بالنسبة لهذه الدراسة فى أنها أوضحت للباحث كيفية تطبيق الفكر الفلسفى فى مجال التربية، وخاصة دراسة (أسعد) التى استفاد الباحث منها فى مناقشته مفهوم الحرية، وفى كيفية انعكاس الفكر الفلسفى على الفكر التربوى. كما أفادت

* زكريا زكريا عبد الصادق فايد : أثر البراجماتية على الفكر والتطبيق التربوي فى مصر، رسالة ماجستير

الدراسات السابقة بنوعها (الفلسفى والتربوى) الباحث فى تحديد المشكلة وتحديد المنهج المستخدم فيها والتعرف على كثير من أبعاد الإطار الفلسفى والتربوى، وزودته برصيد عن الأوضاع السابقة، الأمر الذى انعكست آثاره الطيبة فى ثنايا هذا البحث. ومن ناحية أخرى يعتبر هذا البحث مكملاً للأبحاث السابقة، غير أنه يختلف عنها من حيث عدم شمول الدراسات السابقة فى بحث هذا المفهوم فى أكثر من تيار أو مذهب فلسفى واحد، وهو ماتوى هذه الدراسة القيام به فى ثلاثة تيارات تعد من كبريات تيارات الفلسفة المعاصرة، كما تختلف هذه الدراسة عن الدراسات السابقة فى تناولها لمفهوم الحرية فى فلسفات التربية المعاصرة، داخل إطارها الفلسفى والتربوى، فى حين ركزت بعض الدراسات على دراسة المفهوم فلسفياً، وبعضها الآخر عالجت تربوياً وفى فلسفات تختلف عن الفلسفات موضوع الدراسة الحالية؛ مما أدى إلى اختلاف فى التساؤلات التى طرحها الباحث فى مشكلة الدراسة.

أهداف دراسة مفهوم الحرية :

يهدف البحث الحالى إلى التعرف على مفهوم الحرية فى فلسفات التربية المعاصرة وذلك

لإيضاح :

- ١- تصور الفلسفات المعاصرة لهذا المفهوم .
- ٢- الكشف عن الأبعاد التربوية لمفهوم الحرية فى الفلسفات المعاصرة موضوع البحث .

ماهية المشكلة :

إن المرحلة الجديدة التى مرت بها البشرية والتى كانت أولى بشايرها فى نهاية القرن التاسع عشر قد فرضت ضرورة وجود نهج تربوى (نظرى - تطبيقى) مناسب. ولم يكن لهذا النهج أن يتسع، ويتطور، لولا وجود فلاسفة بارزين، أسهموا فى إغناء الفكر الفلسفى والتربوى المعاصر، من خلال إدراكهم لمكونات الواقع الموضوعى، ودورهم فى تقديم ما يخدم تطور المرحلة.

لقد تضمنت آراء الفلاسفة المعاصرين، عن مفهومهم للحرية أطروحات تربوية، تتناول العملية التربوية، من جميع جوانبها، وهى اليوم أطروحات هامة جداً لاغنى عن استخدامها والاستفادة منها، ومن هذه الطروحات : حرية المعلم وحرية المتعلم .. ومبادئ المساواة وربط العلم بالعمل والحياة، إلى ما هنالك من مكونات وأسس ديمقراطية التعليم، الذى تنادى به اليوم معظم أنظمة التعليم فى العالم. ولما كانت هذه الآراء والطروحات لم تخرج عن إطار الدعاية، ولم تتل القسط الوافر من البحث والانتشار، فإن الحاجة إلى معرفة ما تتضمنه آراء الفلاسفة

المعاصرين تتزايد وتتعاظم. وبهذا يمكننا القول : إن إغناء المكتبة التربوية العربية ورفدها بأفكار هؤلاء الفلاسفة أمر مهم، في هذه المرحلة، التي تسعى فيها الأمة العربية في تربيتها إلى الحفاظ على الأصالة مع اعتماد المعاصرة، حيث ورد في استراتيجية تطوير التربية العربية التي اعتمدها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : " إن الأمة العربية لا يسعها أن تكون منعزلة عن المجتمع الدولي وعن الحضارة المعاصرة، بل إن من خصائصها، على طول التاريخ، وفي أصول ثقافتها، أن تتصل بالشعوب الأخرى وثقافتها، وعلى الحضارة المعاصرة وإنجازاتها، ويترتب على ذلك أن المجتمع العربي والتربية العربية، إنما يتطلب النظر إليها بصورة وافية وبوجهة سليمة، الإحاطة بالعالم المعاصر ومجمل أحواله الحضارية فكراً وأنظمة وواقعاً" (١) ومن هنا كانت التربية العربية تفتح أبوابها لجميع الآراء التربوية إن كان ذلك من الشرق أو الغرب، على أن تكون منسجمة مع واقع مجتمعنا العربي وانطلاقته المستقبلية.

ويجئ اختيار بحث "مفهوم الحرية في بعض فلسفات التربية المعاصرة" ضمن هذا الإطار. حيث تستهدف الدراسة الراهنة التحقق من مقولة تصور الفلسفة المعاصرة لمفهوم الحرية من خلال التربية، أو إن شئنا قلنا مفهوم الحرية في الفلسفة المعاصرة وأبعاده التربوية".

ومن هنا يمكن تحديد مشكلة البحث في التساؤل الرئيسي الآتي :

إلى أي مدى ينعكس مفهوم الحرية في الفلسفة المعاصرة على الفكر التربوي وتطبيقاته المختلفة ؟
ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة البحثية التالية :

- ١- هل ترى الفلسفة المعاصرة أن الرغبة في الحرية أصيلة في الكينونة البشرية، أم أنها ثمرة أحوال وظروف خاصة ؟ أي هل تعتبر حرية الإنسان فطرية أم مكتسبة ؟ وما الدور الذي يترتب على التربية أن تقوم به ؟
- ٢- هل المعرفة ضرورية للحرية؟ وهل تنتفي الحرية بانتهاء المعرفة، وتتحقق بوجودها ؟ وما دور التربية في ذلك ؟
- ٣- ما هي أفضل الطرق التربوية التي تؤكد انطلاق الإنسان ؟ وما هي نتائج ممارسة الإنسان لحرية ؟ وما هي نتائج حرمان الإنسان من ممارسة حريته ؟

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : استراتيجية تطوير التربية العربية، ط ١ - ١٩٧٩، ص

٤- مع التسليم بأن الأديان والمجتمعات والنظم السياسية قد فرضت على الإنسان بعض القيود، فهل هذه القيود فى صالح الإنسان أم لا ؟ وما مدى أحقية هذه الجهات فى فرض هذه القيود؟ وما حق الإنسان فى رفض هذه القيود ؟

٥- ما مدى أحقية بعض الجهات - كالتربية مثلاً - فى وضع قيود على الإنسان تعتقد هى أنها فى صالحه، ويعتقد هو أنها ليست كذلك ؟

٦- إلى أى مدى تعتبر الحرية ضرورية فى التربية لتقدم الفرد والمجتمع ؟

٧- كيف تنظر فلسفات التربية المعاصرة إلى حرية المعلم وحرية المتعلم ، وما العلاقة القائمة بينهما ؟

٨- كيف نربى الأجيال على ممارسة حريتها ؟

ومن هنا سوف يقوم الباحث بدراسة تحليلية لأراء الفلاسفة المعاصرين، المتعلقة بالحرية، حتى نتبين طريقنا من حيث اصطفاء ما يلائمنا منها، أو ما يمكن أن يلبي حاجتنا وتطلعاتنا.

أهمية الدراسة :

تتبع أهمية الدراسة من أهمية الموضوع الذى نتناوله، ومن ثم فإن أهمية دراسة مفهوم الحرية فى فلسفات التربية المعاصرة تتبلور فى أنها :

١- تكشف النقاب عما تحمله أفكار الفلاسفة المعاصرين وآراؤهم من ثراء، لا يمكن أن ينكر، والتي نحتاج إلى التعرف عليها وإبرازها وفهمها ومحاولة الاستفادة منها ما أمكن ذلك.

٢- تدور حول مفهوم هام فى فلسفة التربية والفلسفة العامة، وأن مثل هذا المفهوم يمكن أن يظهر الوحدة الفكرية التى تتخطى حدود الزمان والمكان، فتقدم فى إطار واحد، وفى مسار رئيسى كافة الآراء والأفكار الخاصة بمفهوم الحرية، وهذا يتيح لنا فرصة تتبع التطور الذى لحق بالمفهوم محور الدراسة.

٣- إن تنمية مفهوم الحرية والعمل على ممارستها ممارسة فعلية عمل من أعمال التربية، التى تقوم على احترام الشخصية الإنسانية ومعاملة الطفل على أنه غاية فى ذاته، وهذا يعنى أن توجه تربيته، كى يصبح عقلاً مفكراً ذكياً، يساعده فى ممارسة حريته، بشكل فعّال، أو بمعنى آخر، يمارس حريته لكى يصبح إنساناً صالحاً فى المجتمع.

٤- تكشف عن التناقض بين النظرية والتطبيقات الفعلية لمفهوم الحرية.

٥- توفر لنا دراسة أعمال الفلاسفة المعاصرين وفهمها أرضية واسعة لفهم الجوانب الكثيرة من جسد التربية العالمية الإنسانية، في حاضرها ومستقبلها.

وهذه الأسباب مجتمعة تضيف على هذه الدراسة أهمية خاصة تتعلق بضرورة دراسة الفكر التربوي المعاصر، خاصة وأنا نعيش في السنوات الأخيرة من هذا القرن في ظل متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية، مما يفرض على التربية، عندنا، أن تغير من نفسها تغييراً هائلاً حتى تواجه الوضع الجديد.

حدود الدراسة :

يتناول البحث بالدراسة مفهوم الحرية في فلسفات التربية المعاصرة وذلك من خلال

التيارات التالية :

١- التيار البراجماتي

٢- التيار الماركسي

٣- التيار الوجودي

أولاً : التيار البراجماتي :

البراجماتية فلسفة علمية ارتبطت بتطور مناهج البحث العلمي والاتجاهات الواقعية المعاصرة. وقد نشأت البراجماتية مذهباً عملياً نفعياً في الولايات المتحدة الأمريكية مع بداية القرن العشرين، وساعد على نشأتها انتشار استخدام الطريقة العلمية، وما ترتب عليها من نفع عملي وتقدم صناعي راجع إلى تنامي قدرة الإنسان على فهم الطبيعة والسيطرة عليها والاستفادة منها(١). ومن هنا فقد رفضت البراجماتية بحث مشكلة أسبقية الفكر على الواقع أو العكس، لأن فلاسفتها يريدون أن يجعلوا نظرية المعرفة أداة للعمل، ووسيلة للاستفادة من الواقع والسيطرة عليه، بدلاً من التنازع حوله؛ لذلك كانت البراجماتية منهجاً علمياً قبل أن تكون فلسفة ميتافيزيقية، وهي طريقة للعمل والممارسة وليست نسقاً عقلياً مجرداً. وأصبحت قيمة الأفكار ليست كامنة في طبيعتها، وإنما فيما ينتج عنها من آثار عملية تفيدنا في حياتنا، كما أن الحقيقة أصبحت تقاس، ليس بمدى تناسقها في عقولنا، كما يقول المثاليون، ولا بمدى تطابقها مع الواقع الخارجي، كما

(١) س. ي. جود : مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، ترجمة محمد شفيق شيا، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨١،

يقول الواقعيون، وإنما حقيقة الفكرة تتمثل في الممارسة العملية التي تدفعنا للقيام بها، وبمدى النفع الذي سيعود علينا منها؛ ومما ساعد على ذلك أن البراجماتية وجدت في النظام الرأسمالي الأمريكي خير تربة للنمو والازدهار؛ طالما أن الرأسمالية عامة تقوم على مبدأ المنافسة الفردية الحرة التي يرتبط بها العمل المنتج النافع، كما أن النظام الرأسمالي يؤكد اتجاه الأمريكيين ليس إلى فهم الواقع لذاته أو بحث مدى أسبقية الفكر على الواقع، وإنما الاتجاه إلى فهم الواقع لاستغلاله والسيطرة عليه، سعياً وراء المنافع التي ستعود عليهم من ذلك، لذا كان مؤسسو هذا المذهب من الأمريكيين، الذين انتشرت أفكارهم بعد ذلك في بقية أنحاء العالم، وأصبح لهم أتباع كثيرون من الفلاسفة خارج أمريكا (١).

ويعد الفيلسوف الأمريكي "تشارلز بيرس" ١٨٣٩ - ١٩١٤ "أول من وضع الأسس العامة للمذهب البراجماتي، عندما قال "إن الفكرة هي ما تعمله" (٢). ثم جاء بعده "وليم جيمس" ١٨٤٢ - ١٩١٠، ليقوم ببناء المذهب ويؤكد أن العمل والمنفعة هما مقياس صحة الفكرة ودليل صدقها (٣). وظهر بعد ذلك "جون ديوى" ١٨٥٩ - ١٩٥٢، ليتم بناء المذهب، ويقرر، في معظم مؤلفاته، "التربية للخبرة، وعن طريق الخبرة، وفي سبيل الخبرة" (٤). وقد عالجت البراجماتية مواضيع عديدة، فهي فلسفة حياة، تؤمن بالتغير، وتهدف إلى التطور، والنمو، وتتخذ من الخبرة منهجاً لها، في مواجهة الواقع، ومعالجة مشكلاته، كما تتخذ من التفكير العلمي أدواتها المنطقية، حتى تصل للحقيقة الموضوعية، بعيداً عن التخبط في متاهات الميتافيزيقا والانطباعات الذاتية. وهي حين تضع أهدافها وتصوغها لا تصوغها بمعزل عن الواقع ومشكلاته، وإنما تصوغها على ضوء الواقع وظروفه، وهذا ما ينسجم مع طبيعة التغير وتطور الواقع. كذلك تؤمن الفلسفة البراجماتية بالحاضر، وتؤكد الدعوة إلى معاشته وفهمه. وفي ضوء هذه الفلسفة يكون التصور البراجماتي عن الطبيعة الإنسانية فهي متكاملة لا مجال فيها للثنائية والانفصال، والإنسان حقيقة واحدة تحيا من خلال الواقع المتغير، وتتأثر بالميول والاستعدادات، كما تتأثر بالبيئة والوسط الاجتماعي. والطبيعة الإنسانية ليست خيرة أو شريرة - حسب البراجماتية - وإنما هي طاقة يحددها، ويبلور

(١) لمزيد من الاطلاع يُنظر :

* وليم جيمس : البراجماتية : ترجمة محمد على العريان، تقديم زكى نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٦٥-٨١.

(٢) عزمى إسلام : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ص ٩٤.

(٣) وليم جيمس : البراجماتية، مرجع سابق، ص ٢٤١.

(٤) جون ديوى : الخبرة والتربية، ترجمة محمد رفعت رمضان ونجيب إسكندر، مكتبة الأنجلو المصرية،

القاهرة، ١٩٥٤، ص ٢٢.

والطبيعة الإنسانية ليست خيرة أو شريرة - حسب البراجماتية - وإنما هي طاقة يحددها، ويبلور شخصيتها سلوكها. فبقدر ما يكون السلوك ذكياً واعياً، بقدر ماتكون خيرة. والطبيعة الإنسانية ليست منسيرة بل مخيرة، أى حرة فى سلوكها، وهذا ما يتناسب مع منطق الأسلوب الديمقراطى الذى تدعو إليه (١).

ثانياً : التيار الماركسى :

ظهرت الماركسية على المسرح التاريخى فى أربعينات القرن التاسع عشر، عندما كانت الرأسمالية قد توطدت فى بعض دول أوربا الغربية (إنكلترا ، فرنسا ، بلجيكا) وفى الولايات المتحدة الأمريكية، فى حين كانت فى دول أخرى مثل (ألمانيا، النمسا، إيطاليا، روسيا) ماتزال تعيش المرحلة الأولى من تطورها، أو تخطو أولى خطواتها. ولقد هيا انتصار الصناعة الضخمة فى انكلترا وتفوقها فى فرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية ومقاطعة الراين البروسية، وكذلك قيام السوق العالمية، وما تبعه من نمو هائل للتجارة والملاحة، وبناء السكك الحديدية، المقدمات الاقتصادية والاجتماعية لظهور الماركسية(٢) إلا أن الشرط الرئيسى لنشوء الماركسية نظرية وبرنامجا للحركة العمالية العالمية كان ولادة " البروليتاريا ". ففى أواسط الأربعينات من القرن التاسع عشر باشر عمال بعض الدول الرأسمالية (إنكلترا، فرنسا، بلجيكا، ألمانيا) فى سياق النضال ضد الاستغلال البرجوازى بإنشاء التكتلات والاتحادات النقابية، ناقلين بذلك حلبة الصراع، من المجال الاقتصادى إلى المجال السياسى. وقد ساهمت البرجوازية نفسها إلى حد ما فى ذلك، حيث عملت فى بداية سعيها نحو الهيمنة الكاملة على اجتذاب " البروليتاريا " إلى المعترك السياسى لتكون حليفاً لها، مما أدى إلى مطالبة القوى العاملة لصياغة علمية لنظرية الحركة العمالية وبرنامجها، الأمر الذى تصدى له كل من "ماركس" و "إنجلس". وتعد أيضاً منجزات العلوم الطبيعية أحد المرتكزات المهمة للفلسفة الماركسية. ويفرد "إنجلس" مكانة خاصة لمجموعة من المنجزات الجديدة فى العلوم الطبيعية التى أدت دوراً أساسياً فى تشكيل النظرة الماركسية إلى الطبيعة، وهى قانون حفظ الطاقة وتحويلها، نظرية داروين، نظرية البناء الخلوى(٣). كما أدت إنجازات الفكر الفلسفى، فى هذه الفترة، دوراً كبيراً فى تشكيل النظرة

(١) لمزيد من الاطلاع ينظر :

وليم جيمس : البراجماتية، المرجع السابق، ص ص ٦١-١٠٧.

(٢) جماعة من العلماء السوفيات : الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر، ترجمة حسان حيدر، دار

الفارابى، الجزء الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق : ص ص ١٧-١٨.

الماركسية إلى العالم، حيث كانت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، في القرن التاسع عشر - في المقام الأول فلسفة "هيجل" و "فوريباخ" - هي المصدر المباشر للفلسفة الماركسية، وإن الاقتصاد السياسي الإنجليزي يعد بدوره من المرتكزات العلمية لنشوء الفكر الماركسي، كما كانت المذاهب الاشتراكية الفرنسية الخيالية من المقدمات التي ساعدت على ظهور الماركسية، حيث أقام "ماركس" علاقات مع الاشتراكيين الفرنسيين أمثال (لوى بلان، وايتنان كابو، وجوزيف برودون) كما التقى برجال سياسة روس أمثال (ميخائيل باكونين، وفاسيلي بوتكين وغيرهما)(١).

ويعد "كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣" و "فريدريك إنجلز ١٨٢٠-١٨٩٥" و "فلاديمير ايليتش لينين ١٨٧٠-١٩٢٤" المؤسسين الحقيقيين للفلسفة الماركسية، التي صارت المادة معلمها الأول، وهي تعنى (أى المادة) من وجهة نظر "لينين" مقولة فلسفية تُعبّر عن الواقع الموضوعي، الذي تقدمه لنا حواسنا(٢). أى أن المادة مفهوم قابل للمعرفة، وذلك من خلال انعكاس المادة في أحاسيسنا.

أما المعلم الثانى للفلسفة الماركسية، فهو ما عرف "بالديالكتيك" أو المادية الجدلية التي تقوم على الصراع، وتناقض الأضداد، بما يسمح لحركة التطور المادى بالاستمرار والتجدد، فالإنسان والمجتمع والأرض، بكل ما عليها هو نتاج لتطور المادة المستمر والمتغير دائماً. ويمكن الوقوف على حقيقة هذا المفهوم الجدلي، والتعرف على مراحل التطور من خلال القوانين الثلاثة التي قررتها الماركسية وهي، قانون الانتقال من التبدلات الكمية، إلى التبدلات النوعية، وقانون وحدة وصراع المتناقضات، وأخيراً قانون نفى النفي(٣).

أما المعلم الثالث للماركسية فهو "المادية التاريخية" وهذا يعنى أن أوضاع الحياة المادية هي التي تقرر أولاً وقبل كل شئ التغييرات التي تطرأ على التفكير الإنسانى، وهي تغييرات

(١) لمزيد من الاطلاع يُنظر :

- لينين : مصادر الماركسية وأقسامها، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، بدون تاريخ، ص ص ٤-٨.

(٢) لينين : الدفاتر الفلسفية ، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة، الجزء الثانى، بيروت، ١٩٨٣، طبعة ثانية، ص ٢٢.

(٣) لمزيد من الاطلاع يُنظر :

- جماعة من العلماء السوفيات : المادية الديالكتيكية، ترجمة فؤاد مرعى وآخرين، دار الجماهير، دمشق، ط ٤، ١٩٧٨، ص ص ٢٢٧-٣١٦.

ليست وليدة قوى غريبة، وإنما هي تغيرات تتحدد بالشكل الذي يحصل به الإنسان على عيشه. وبعبارة أخرى أن المادية التاريخية هي النظرية العامة للعملية التاريخية (١).

ثالثاً : التيار الوجودي :

يرى فريق من الفلاسفة أن الفلسفة الوجودية ظهرت في ألمانيا، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، في جو سياسي وروحي، تميز بالآسى والحقد العارم، بعد الهزيمة التي لحقت بالدوائر العسكرية الألمانية، وبالذعر أمام تصاعد الثورة الاشتراكية، في روسيا، والمد الثورى في ألمانيا. وبعد الحرب العالمية الثانية انتشرت موجة الوجودية لتشمل العالم الرأسمالي بأسره، ويعود السبب في هذا إلى أن الوجوديين طرحوا قضايا تتعلق بمعنى الحياة الإنسانية ومصير الإنسان، ومشكلات الحرية والاختيار والمسؤولية الذاتية (٢). ويرى فريق ثان، أنه من الخطأ الاعتقاد أن هناك مذهباً قائماً بذاته يسمى " الوجودية " إذ لا وجود لغير " وجوديات " مختلفة، تشترك في بعض العناصر، وتسمى بأسماء الفلاسفة، الذين ابتدعوها، فمن وجودية طليقة من كل المعتقدات الموروثة يمثلها " هيدغر " في إيطاليا، ثم " جان بول سارتر " في فرنسا، إلى وجودية مقيدة تشد نفسها إلى عقيدة ويمثلها " كارل يسبرز " في ألمانيا و " جبريل مارسيل " في فرنسا، وكتنا النزعتين تعترف " بكيركيجورد " المفكر الدينمركى المشهور الذى ولد سنة /١٨١٣/ وتوفى سنة /١٨٥٥/ في "كوبنهاجن" بوصفة الأب الروحي للوجودية بكل اتجاهاتها، وإن كانت الشعبة الثانية أقرب إليه (٣). ويرى فريق ثالث أن الفلسفات الوجودية لم تظهر بين يوم وليلة، ومن المؤرخين من يتلمس أصول الفكر الوجودي في " التوراة " و " الإنجيل " وفي أقوال الأنبياء، وإن لم يكونوا فلاسفة، وبعد ذلك كان "سقراط" و "إفلاطون" ومن تلاهم (٤). وإذا كانت الفلسفة الوجودية إحدى أكثر تيارات الفلسفة المعاصرة انتشاراً فقد ظهرت في مرحلة دخلت فيها الرأسمالية أزمتها العامة، فجاءت هذه الفلسفات وريثاً شرعياً لأفكار "برجسون" و "تيتشة" آخذة منهجها من

(١) لمزيد من الاطلاع يُنظر :

ف. كيللي و م. كوفالزون : المادية التاريخية، ترجمة أحمد داود، دار الجماهير، دمشق، ١٩٨٤، ص ٣-٧.

(٢) أ.ت. ساخاروفا : من فلسفة الوجود إلى النيبوية، ترجمة أحمد برقلاوى، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٥-١٦.

(٣) عبد الرحمن بدوى : دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٦.

(٤) غازى الأحمدي : الوجودية فلسفة الواقع الإنسانى، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٤، ص ١٥-١٧.

"فينومينولوجية" هوسرل" كما أخذت أفكارها الأساسية من تعاليم المفكر الدينمركى "كيركيجورد" (١) .

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الفلسفات الوجودية تمثل تيارين رئيسين :

الأول : مؤمن يمثله "كارل يسبرز" و "مارسيل"

والثاني : ملحد يمثله "هيدغر" و "سارتر"

ونقطة الخلاف بين التيارين تكمن فى موقف الفيلسوف الوجودى من الله. التيار الأول المؤمن يضع الإنسان فى علاقة مباشرة مع الله، أما التيار الثانى الملحد فيرى الإنسان فى عزلة تامة. إلا أن ما يميز الوجودية، على الرغم من تعدد شعبها، وتضارب آرائها، هو أنها تتفق جميعاً فى أن الوجود يسبق الماهية، وأن وجود الكائن الحى إنما فى أفعاله التى يفعلها، والتى يمكن تحديده ابتداء منها. كما أنها تتفق جميعاً على أن الوجود إنما هو الوجود الإنسانى أولاً وقبل كل شئ.

وما ذكرناه آنفاً، هو بمنزلة لمحة موجزة عن التيارات الفلسفية المعاصرة التى تتكون منها حدود هذه الدراسة، وفى تناول البحث لمفهوم الحرية لدى كل تيار سوف يحاول الباحث أن يتبين هذا المفهوم فى الإطار الفلسفى العام لهذا التيار أو ذلك أولاً، ومن ثم سوف يتجه الباحث إلى استيضاح الأبعاد التربوية لكل مفهوم فى المرحلة الزمنية التى ساد فيها. وجدير بالذكر أننا لانزعم أن هذه الدراسة المتواضعة تستطيع الإلمام بكل جوانب الحرية، إذ أن الموضوع يتعذر على باحث واحد أن يقوم به، أو يخوض فيه بدقة وتفصيل، وإنما هى محاولة للإمساك بأول الخيط لمعرفة تصور الفلسفات المعاصرة للحرية بدءاً بواقعها الفلسفى ثم التعرف على أبعادها فى مجال الفكر التربوى، فإذا ما نُظر إلى التربية بوصفها ميداناً تطبيقياً يستمد أصوله من عدة ميادين نظرية يمتزج فيها العلم والفن، لاندعى أن هذه الدراسة ستخوض فى مجال التربية بوصفه ميداناً تطبيقياً، بل هى دراسة لاتخرج عن كونها مجرد جهد مبدئى فى ميدان فلسفة التربية جلّ اهتمامها هو التعرف على اتجاهات فلسفية معاصرة، كان لها أثرها وأبعادها فى مجال التربية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

(١) إم. بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوروبا، ترجمة عزت قرنى، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى

ومن وجهة نظر الباحث تعد هذه الفلسفات آفة الذكر هي الأهم والأشمل في معالجتها لمفهوم الحرية مقارنة بتيارات فلسفية أخرى، لكونها قد نهبت بشكل واضح إلى أخطار العبودية بالشكل الذي صار عليه الحال في عالمنا المعاصر، أى بالتركيز على التقنية والعلم، وإهمال عواطف الإنسان ومشاعره وانفعالاته وبالتالي حريته. وما كان من جراء هذا سوى تحول الإنسان إلى مجرد آلة بشرية وليس كائناً بشرياً. من هذه الزاوية، يرى الباحث ضرورة الإنصات لهذه الفلسفات، وهى تصرخ، مطالبة بتحقيق الحرية الإنسانية لكل إنسان كائناً ماكان، عسى أن يفيدنا هذا الإنصات فى تحقيق التعادل والتوازن بين جوانب الإنسان المختلفة ويوضح أمام ناظرينا أن هدف التربية هو الإنسان الإنسانى، أى الإنسان الحر الواعى بما فى داخله، وبما بين يديه، وبمصيره الذى لا يتحكم أحد فيه سواه، أما أن يصبح فنياً، أو مهنياً، أو عالماً فقط، فهذا ليس بيت القصيد، بل عليه أن يتعلم أولاً كيف يصبح إنساناً حراً واعياً.

منهج البحث(١) :

تحدد طبيعة الموضوع الذى يرغب الباحث فى دراسته المنهج الواجب اتباعه، وقد استدعت طبيعة البحث استخدام منهج التحليل الفلسفى - فجوهر منهج البحث الحالى هو اعتماد طريقة التحليل والتركيب اللتين استخدمهما الباحث من أجل مراجعة آراء الفلاسفة المعاصرين وأقوالهم وتناولها تناوياً نقدياً، ثم تصنيف المشكلات الفلسفية المتعلقة بمفهوم الحرية وتميزها، فتقسيم المشكلة الواحدة إلى عدة مشكلات، وذلك عن طريق صياغتها فى أسئلة، ثم تناولها واحدة، واحدة بغية الوصول إلى حل أو اتخاذ موقف معين بشأنها .. وهذا ما قام به الباحث فى ثنايا هذا البحث .. حيث ترتب على ذلك العودة إلى مؤلفات الفلاسفة المعاصرين وتحليلها والكشف عن العوامل والظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التى ظهرت فيها أفكارهم وانعكاساتها فيها.

وبناء على ذلك، تستخدم هذه الدراسة المنهج الفلسفى من أجل تحليل الآراء المختلفة التى عبر من خلالها الفلاسفة المعاصرون عن مواقفهم تجاه مفهوم الحرية الإنسانية .. ويستخلص الباحث من هذه التحليلات السمات والخصائص التى تميز بها مفهوم الحرية لدى الفلاسفة المعاصرين ومدى انعكاس ذلك على فكرهم التربوى.

(١) اعتمد الباحث فى عرض المنهج الفلسفى على :

محمود زيدان : مناهج البحث الفلسفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٧٧.

مفاهيم الدراسة :

إن ما يتطلبه البحث العلمى الدقيق تحديد سير البحث وخط تفكيره، وهذا لا يكون إلا عن طريق تعريف المفهوم أو المفاهيم التى يستعملها الباحث تعريفاً دقيقاً إذ من دونه سندور فى حلقة مفرغة، ولا نستطيع أن ننطلق من مفاهيم واضحة للوصول إلى حل أى مشكل.

١- مفهوم الحرية :

تعتبر الحرية من أصعب الألفاظ التى يمكن عرض تعريفها ومعرفة مدلولها فهى من الألفاظ التى لا يمكن تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً، لأن معناها قد اختلف باختلاف الفلاسفة والمذاهب والعصور، فقد أحاط بهذه الكلمة غموض كبير، لكثرة ما تناقلتها الألسنة، وكثرة ما راجت فى مختلف الهيئات والميادين. وعن ذلك يعبر " إشعيا برلين" فى كتابه " أربع مقالات فى الحرية " قائلاً " لا أنوى أن أبحث تاريخ هذه الكلمة المتقلبة ولا معانيها، التى تنوف على المائتين والتى دونها مؤرخو الأفكار " (١) .

وإذا ما أتينا إلى كلمة الحرية فى اللغة الإنجليزية نجدها تحمل لفظتين (Freedom Liberty) تشيران إلى وضع اجتماعى يفيد منزلة رفيعة وأساسه الانعتاق من العبودية والأسر والسجن والجزية وإلى غياب القهر والقسر والإجبار والإرغام فى الفعل أو الاختيار أو القرار (٢) .

والحرية بحسب معناها الاشتقاقى فى اللغة العربية، إذا أطلقت على الخلوص من الشوائب، دلت على صفة مادية، وهذا هو المعنى العام فىقال ذهب حر لانحاس فيه، وإذا أطلقت على الخلوص من الرق، دلت على صفة اجتماعية. يقال - رجل حر أى طليق من كل قيد سياسى أو اجتماعى. وإذا أطلقت على الخلوص من اللؤم دلت على صفة نفسية يقال رجل حر أى كريم (٣). ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن لفظة " الحرية " لم ترد على الإطلاق فى القرآن الكريم وإنما ورد لفظ " الحر " فى سورة البقرة فى قوله تعالى : " يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيئاً فاتباع بالمعروف وأداء

(١) إشعيا برلين : أربع مقالات فى الحرية، ترجمة عبد الكريم محفوض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى، دمشق، ١٩٨٠، ص ٢٧٦.

(2) William Little (ed) The shorter Oxford English Dictionary, Vol. Clarendon press, Oxford, 3rd, 1973. p. 803.

نقلا عن :

يمنى طريف الخولى : الحرية الإنسانية والعلم، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٤٨.

(٣) مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٤٤.

إليه بإحسان ذلك تخفيفاً من ربكم ورحمةً فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم" (١) وهو يرد في موضعه، ليدل على [وضع اجتماعي وقانوني] معين، لا ليدل على حالة نفسية معينة، أو على ما يدل عليه لفظ (الجر) في حياتنا المعاصرة (٢). وعبر تاريخ العربية حملت مادة (حر) أربعة معان متميزة هي (٣) :

١- معنى خلقى : ويعنى السيد الشريف الكريم وكل ما هو أصيل ونبيلى، فالأحرار من الناس أختيارهم وأفاضلهم ويقال هو من حرية القوم أى من خالصهم، كما يقال ما هذا منك بحر أى بحسن.

٢- معنى قاتونى : وهو المستعمل فى القرآن الكريم فى قصة مريم فى قوله تعالى : " إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (٤) .

٣- معنى اجتماعى : وهو استعمال بعض متأخرى المؤرخين : الحر هو المعفى من الضريبة (٥) .

٤- معنى صوفى : ورد فى تعريفات " الجرجانى " الحرية فى اصطلاح أهل الحقيقة الخروج عن رق الكائنات، فهى تحرر من الشهوات وفناء إرادة العبد فى إرادة الخالق (٦) .

ومن الملاحظ هنا أن المعانى الأربعة تدور حول الفرد فى علاقته مع غيره سواء أكان ذلك الغير فرداً آخر يتحكم فيه من الخارج، أو قوة طبيعية تستعبده من الداخل.

وإذا ما قمنا بمحاولة تسليط الضوء على المفهوم من الناحية الفلسفية، نجد أن الحرية من أغنى المفهومات الفلسفية عن التعريف فالحرية عادة تعنى تلك الملكة الخاصة التى تميز الكائن الناطق من حيث هو موجود عاقل يصدر فى أفعاله عن إرادته هو، لا عن أية إرادة أخرى غريبة عنه. فالحرية هى عبارة عن انعدام القسر الخارجى والإنسان الحر بهذا المعنى هو من لم

(١) سورة البقرة - آية ١٧٨.

(٢) عبد الغنى عبود : قضية الحرية وقضايا أخرى، الكتاب السابع، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٦١.

(٣) عبد الله العروى : مفهوم الحرية، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ط ٤، ١٩٨٨، ص ١٣.

(٤) سورة آل عمران - آية ٣٥.

(٥) عبد الله العروى : المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

(٦) المرجع نفسه، ص ١٣.

يكن عبداً أو أسيراً^(١). ومن هنا فقد اصطلح التقليد الفلسفى على تعريف الحرية بأنها "حال الكائن الحى، الذى لا يخضع لقهر أو غلبة، ويفعل طبقاً لطبيعته وإرادته"^(٢) وهنا يأخذ معنى الحرية جملة من الأبعاد أهمها :

١- البعد السياسى والاجتماعى للكلمة ، ويقصد به الحرية النسبية والحرية المطلقة . الحرية النسبية هى الخلاص من القسر، والإكراه الاجتماعى، والحر هو الذى يفعل ما يريد فى حدود القانون ودون أن يسئ إلى غيره. ونذكر من الحريات السياسية حرية الرأى والقول والعمل والاعتقاد. وهى مقيدة دائماً بنظام المجتمع وحقوق الآخرين، وليس ثمة حرية مطلقة^(٣) .

أما الحرية المطلقة، فهى "حق الفرد فى الاستقلال عن الجماعة التى انخرط فى سلوكها. وليس المقصود بهذه الحرية حصول الاستقلال بالفعل، بل المراد منها الاقرار بهذا الاستقلال، واستحسانه، وتقديره، واعتباره قيمة خلقية مطلقة. ولقد فرق المفكرون بين الحرية المدنية، والحرية السياسية فقالوا : الحرية المدنية هى استمتاع الأفراد بحقوقهم المدنية فى ظل القانون، أما الحرية السياسية فهى استمتاع الأفراد بحقوقهم السياسية، واشتراكهم فى إدارة شؤون بلادهم مباشرة أو بواسطة ممثليهم. وإذا أطلقت الحرية السياسية على الدولة نفسها دلت على استقلالها وسيادتها"^(٤) .

٢- البعد النفسى والخلقى . وهنا تعنى الحرية القدرة على تحقيق الفعل دون خضوع لمؤثر خارجى، وإنما تصدر الأفعال عن المرء نفسه بحيث يشعر أن الفعل صادر عن إرادته، لذا يعتقد بعض الفلاسفة أن قوانين الطبيعة تصف ولا تلزم؛ وبالتالي فهى لا تقسر أحداً على شئ. فحتى قوانين الحركة تصف لنا كيف تتحرك الأشياء فى الواقع دون أن تجبرها على الحركة، وعلى هذا يعتقد هؤلاء الفلاسفة أننا نتصرف فى الواقع تصرفاً حراً (دون أن

(١) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مرجع سابق، ص ١٨ .

(٢) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية - القاهرة، ١٩٨٣، ص ٧١ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٧١ .

(٤) جميل صليبا : المعجم الفلسفى، دار الكتاب اللبنانى، المجلد الأول، بيروت، ١٩٧١، ص ٤٦٣ .

نكون تحت أي إجبار) وعلى أساس هذا النوع من الحرية تقوم التبعية الأخلاقية وحرية الإرادة وحرية الضمير (١) .

أما إذا رجعنا إلى نظريات الفلاسفة المختلفين في الحرية، فقد يكون في وسعنا أن نجد لهذه الكلمة أربعة مفاهيم مختلفة لخصها معظم الباحثين كما يلي :

أولاً : حرية الاختيار القائمة على الإرادة المطلقة، أو حرية استواء الطرفين؛ وهذا النوع من الحرية أطلقه المدرسيون على تساوى الإمكان في الفعل وعدم الفعل (٢) . وهو ما يتبادر إلى أذهاننا جميعاً حينما نتصور أنفسنا أحراراً فنحن ننسب إلى أنفسنا صفة الحرية لأننا نعلم أن في وسعنا أن نعمل بمقتضى إرادتنا نحن، ولمجرد أننا نريد هذا الشيء أو ذلك، على هذا النحو أو ذلك، ومن الفلاسفة الذين فهموا الحرية على هذا النحو "بوسوية" الذي يقول : إننى كلما بحثت في ذاتى عن السبب الذى يدفعنى إلى العمل، فإننى أشعر بأنه ليس هناك من علة لأفعالى سوى حريتى، ومن ثم فإننى أشعر، بوضوح، بأن حريتى إنما تنحصر فى مثل هذا الاختيار (٣) . فالإرادة الحرة هنا هى عبارة عن القدرة المطلقة على الابتداء أو المبادأة، لأننا هنا بصدد حرية تعمل بطريقة تعسفية محضة، غير مشروطة فى فعلها بأى شئ كائناً ماكان. وقد ذهب "ديكارت" إلى أن هذا النوع من الحرية يوجد فيه نقص فى المعرفة تعجز معه الإرادة عن ترجيح أحد الطرفين على الآخر، وهذا - فى رأيه - أخط مراتب الحرية (٤) . وقد أشار فيلسوف فرنسى آخر هو "رنوفيه" إلى أن سوابق الفعل لا تكفى لتعيينه، إذ أننا نشعر جميعاً بأن حريتنا تنحصر فى تحقيقنا لأفعالنا، دون الخضوع لشروط أو لظروف خارجية. فالقول بأن الفعل حر إنما يعنى أن هذا الفعل غير محدد بأى شرط سابق، كائناً ماكان، بمعنى أنه مستقل تماماً، لا عن كل قوة خارجية فحسب، بل عن سائر الدوافع والبواعث الباطنة أيضاً، بما فى ذلك التصورات والعواطف والميول ... الخ (٥) . وإذا فهمنا "الحرية"، على هذا النحو، فإن مفهوم هذه الكلمة لا بد أن يكون وثيق الصلة بمفاهيم أخرى مثل مفهوم "الاتحدد" ومفهوم "الإمكان" ... الخ. وعندئذ لا بد أن نفهم من الفعل الإرادى أنه الفعل الذى نستطيع من خلاله أن نختار بين أن نتصرف على صورة

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة : نقلها عن الإنجليزية، فؤاد كامل، وزميله، راجعها واشرف عليها زكى نجيب محمود، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٣٧.

(٢) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٣) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٤) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٥) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مرجع سابق، ص ٢٠.

ما أو أن نمتنع عن التصرف (١) . وهنا تظهر فكرة "الاختيار" على اعتبار أن الحرية إن هي إلا المقدرة على الموافقة أو عدم الموافقة على الاندفاع، التي نحس بها في ذاتنا (٢) . ومثل هذا التصور لابد أن يقودنا إلى فكرة "عدم الاكتراث" أو "استواء الطرفين"، بمعنى أنه ليس في الأشياء ما يدفعنا إلى الاتجاه نحو طرف، دون الآخر. فالحرية هنا هي ملكة الاختيار من دون أدنى باعث، إذ في هذا الاختيار تتحصر تجربتنا لما لدينا من حرية وإرادة (٣) .

ثانياً : الحرية الأخلاقية، أو حرية الاستقلال الذاتي، وهذا النوع من الحرية هو ذلك الذي ينطوي على مشكلات إمكانية وقدرة الإنسان على أن يكون شخصية مستقلة ومبدعة، وأن يعبر في نشاطه الأخلاقي عن ماهيته الإنسانية الأصيلة وفي مختلف النظريات المثالية تعتبر الحرية الأخلاقية سمة للإنسان بما هو إنسان (٤) . فنحن لا نشعر بأننا أحرار حينما نعمل بمقتضى أول دافع يخطر لنا على بال، وحينما نلتزم بواجبنا أو نؤدى واجبنا أو نؤدى واجبنا، بل نحن نشعر بحريتنا حقاً، حينما نعرف ما نريد، ولماذا نريده، بعبارة أخرى، عندما نعمل وفقاً لمبادئ أخلاقية يقرها عقلنا، وتتقبلها إرادتنا. فالفعل الحر بهذا المعنى هو الفعل الصادر عن روية وتعقل وتدبير. ويرى "زكريا إبراهيم" أن هذا النوع من الحرية وثيق الصلة بما سماه "كانت" بالاستقلال الخلقى، وهو تلك الحالة التي يتصف بها الفاعل الأخلاقي عندما يضع لنفسه قاعدة فعله (٥) .

ثالثاً : حرية الحكيم أو حرية الكمال؛ وهذا النوع من الحرية وثيق الصلة بالنوع السابق، ولكنه ذو طابع معيارى مثالى يجعله أكثر سموً وشرفاً. وحرية الكمال هي الصفة التي تميز ذلك الحكيم الذي استطاع أن يتحرر من كل شر، ومن كل كراهية، ومن كل رغبة، أى حرية الفيلسوف الذي قد تحرر بالفعل من عبودية الأهواء والغرائز، والجهل (٦) . وقد ذهب إلى مثل هذا الرأي أيضاً المفكر المغربى "محمد عزيز الحبابى" الذى قال : "إننا نتحرر من القوى الباطنية (غرائز، رغبات، وأهواء) عندما نصل إلى معرفتها، وتبناها، ونكيفها. فالتحرر فعالية تسيطر

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة : مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٢) أندريه كريسون : تيارات الفكر الفلسفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٢٣.

(٣) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مرجع سابق، ص ص ٢٠-٢١.

(٤) ايفوركون : معجم علم الأخلاق، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٤، ص ١٧٥.

(٥) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، المرجع السابق، ص ٢١.

(٦) المرجع السابق، ص ٢١.

على طبيعة الإنسان الغامضة، تحت ضوء العقل، وبفضل الإرادة^(١). ومن هنا فقد استطاع "لينتس" أن يقول: "إن الله وحده هو الكائن الحر بأكمل معاني الحرية، وأما الموجودات المخلوقة فهي ليست حرة، إلا بقدر ما تسمو بنفسها فوق الأهواء"^(٢).

رابعاً: الحرية السيكولوجية أو النفسية؛ وتعنى هذه الحرية التحرر من القيود والعوائق النفسية الداخلية. وللحرية النفسية معنيان - معنى سلبي - ومعنى إيجابي.

ويقصد بالمعنى السلبي انعدام وجود العوائق النفسية التي تحول دون استمرار النمو النفسي، ودون بزوغ المواهب أو القدرات الخاصة، من حيز الكمون، إلى حيز الواقع النفسي. أما المعنى الإيجابي للحرية النفسية فيعني الظروف أو الشروط الإيجابية، أو الوسائل التي يستعان بها لكي تستثار أو تستحث القوى والمواهب والاستعدادات النفسية الكامنة لدى الفرد^(٣).

ويتضح مما تقدم كيف تشعبت مفاهيم الحرية لتشمل مفاهيم متعددة. ومن الجدير بالذكر أن الفلاسفة والمفكرين المعاصرين قد سبروا أغوار معاني الحرية ضمن هذا الإطار الذي تم عرضه، فهناك المفهوم البراجماتي للحرية الذي يعتقد أصحابه أن الحرية إحدى العلامات المميزة لطبيعة الإنسان. وليكون الفرد إنساناً يجب أن يكون قادراً على اختيار ما سيكونه، وما سيقوم به، لا أن يتبع تبعية مجردة أوامر الضرورة الفطرية أو الآلية. لذا تؤكد البراجماتية على حرية الاختيار، وتعتبرها عاملاً أساسياً يجب أن يتمتع به الإنسان، غير أن الحرية التامة - من منظور هذه الفلسفة - لا تتحقق دائماً في حياة الإنسان طالما تخنقها الظروف الاجتماعية غير المناسبة، وبذلك يحرم الفرد منها، ومن هذا المنطلق تعد البراجماتية الحرية هدفاً يجب أن نسعى إلى تحقيقه، وليست من الممتلكات التي تهبها الطبيعة، بمعنى أن الحرية تحصل بالاكتمال وليست بالفطرة^(٤)، وهذا ما يتفق مع الرأي الماركسي كما سنرى فيما بعد.

وترى البراجماتية أن الحرية الوحيدة ذات الأهمية الخالدة هي حرية الذكاء، أي حرية الملاحظة والحكم التي تستخدم في تحقيق أهداف لها قيمة في ذاتها^(٥). ويقول "برويكر": "الإنسان المتمتع بحرية من هذا النوع قد يقوده تفكيره إلى زيادة ماعنده من طاقة في بنائه

(١) محمد عزيز الحبابي: من الحريات إلى التحرر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢١٢.

(٢) زكريا إبراهيم: مرجع سابق، ص ٢١.

(٣) يوسف ميخائيل أسعد: الحرية النفسية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٧.

(٤) فيليب هـ. فينكس: فلسفة التربية، مرجع سابق، ص ٤١٢-٤١٣.

(٥) جون ديوى: الخبرة والتربية، مرجع سابق، ص ٥٦.

العقلية" (١) . ومن منظور هذه الفلسفة إنه من الخطأ أن نجعل هذا النوع من الحرية (الحرية الفكرية) مرادفاً لحرية الحركة، أو الجانب الخارجى أو البدنى للنشاط ، على الرغم من أن هذا الجانب الخارجى والبدنى للنشاط لا يمكن فصله عن الجانب الداخلى له، أى عن حرية الفكر والرغبة والغرض. كما تؤكد البراجماتية على الفوائد الكثيرة لهذا النوع من الحرية (الحرية الخارجية) إذ يقول "ديوى" : بدونها يستحيل على المدرس أن يعرف الأفراد الذين يدرسه، ذلك أن الطاعة والهدوء المفروضين، قسراً، يحولان بين التلاميذ وبين التعبير عن سجايهم الحقيقية، ويفرضان عليهم طابعاً واحداً مصطنعاً، ويفضلان المظهر على المخبر، ويضعان فى المكان الأول من الاعتبار أهمية الاحتفاظ بالمظاهر الخارجية لانتباه التلاميذ وأدبهم وطاعتهم" (٢) ومن وجهة نظر الباحث أن حرية الحركة - التى تتحدث عنها البراجماتية - لها أهميتها من حيث هى وسيلة للمحافظة على الصحة البدنية والعقلية السوية، الأمر الذى قال به الفلاسفة الإغريق الذين أشاروا بوضوح إلى العلاقة بين الجسم السليم والعقل السليم.

وأما المفهوم الماركسى للحرية فله معنى متميز يستند إلى طبيعة الفلسفة الجدلية ومسلّماتها الأساسية. فليست الحرية خروجاً عن الضرورة أو القانون، بل هى معرفة القوانين أو الضرورة التاريخية والموضوعية والسيطرة عليها، أى أن حرية الإنسان ترتبط بوعيه، زيادة ونقصاناً واتساعاً وعمقاً (٣) . وقد تأثر "ماركس" فى هذا المعنى بتعريف "هيجل" للحرية حين قال : "الحرية فى صميمها الشعور بالضرورة" (٤) وبسبب هذا الاقتران بين الحرية والضرورة، وصفت الماركسية بالحتمية لأنها تقدم الضرورة ومعرفتها شرطاً للحرية، كما يستند أصحاب هذه الرؤية إلى ما جاء فى الأدب الماركسى من عبارات تؤكد هذه الحتمية، فمن العبارات كقول "ماركس" : "تبدو المجتمعات كما لو كانت تجرى على قضبان حديدية، لا تستطيع تجنب صدمات المصير، بل تستطيع فقط أن تزيد أو تقلل من سرعاتها نحو هذه الصدمات" (٥) . ومع ذلك يصر رواد الفلسفة الماركسية على ان الحتمية التى يدينون بها ليست حتمية قدرية إلهية، ولكن الناس لا يستطيعون التخلص من قوانين التطور الاجتماعى، ويضعون قوانين جديدة، ولكنهم قادرون على

(١) جون س. بروبيكر : الفلسفات الحديثة للتربية، ترجمة نعيم الرفاعى، المطبعة التعاونية، الجزء الأول، دمشق، ١٩٦٧، ص ١١٩.

(٢) جون ديوى : الخبرة والتربية، مرجع سابق ، ص ٥٧.

(٣) V. Afanasyev. Marxist Philosophy. Moscow. Progress. 1963. p. 176.

(٤) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مرجع سابق ، ص ٧٣.

(٥) Peter, A.F. Values and Society. An introduction to Ethics and social philosophy. Prentice Hall, New Jersey, 1978, p. 65.

معرفة هذه القوانين وفهمها، ومن ثم يستطيعون التدخل في الفعل التاريخي (العملية التاريخية)(١). لقد كتب "ماركس" حول الحرية باعتبارها بُعداً إنسانياً محدداً في مؤلفه "الأيدولوجية الألمانية" مايلي : "تكمّن الحرية في السيطرة على أنفسنا، والسيطرة على الطبيعة الخارجية، وهي سيطرة تقوم على معرفة الضرورة الطبيعية، وعليه فإنها نتاج تطور تاريخي بالضرورة" (٢) . ومن هذا المنطلق جاء تعريف الماركسية للحرية بأنها "ضرورة يدركها الوعي ويسيطر عليها" (٣) . وبالتالي فإن منبع الحرية من منظور الفلسفة الماركسية - ليس الفطرة، وإنما هو الوعي بقضية الحرية واكتسابها.

وبعبارة أخرى نقول : الإنسان - حسب الماركسية - لم يولد حراً كما يقول بعض المفكرين كـ (روسو) وإنما ولد مخلوقاً تحدده ظروف مستقلة عن إرادته، وبفضل حياته الاجتماعية وقوانين تطورها يطور بالتدرّج، وفي الممارسة الاجتماعية، قدراته التي تجعله يصبح حراً، فيما بعد، وهو يفعل ذلك في صراع مع الطبيعة الخارجية، وفي صراع اجتماعي وطبقي، أي أن الحرية الإنسانية لا بد ان تحصل بالاكتساب، وهذه نقطة التقاء مع الفلسفة البرجماتية.

وفيما يتعلق بالمفهوم الوجودي للحرية؛ فهو شكل من أشكال المفهوم البرجوازي المطلق للحرية، يرفض التحديدات النسبية لأنه يرفض الشروط الخارجية للحرية، لكن الإطلاق - من منظور الوجودية - يخرج عن مجال الطبيعة والفطرة إلى مجال الإرادة والاختيار. يقول "سارتر" : "إننا لا ندرك ذواتنا إلا من خلال اختياراتنا، وليست الحرية سوى كون اختياراتنا دائماً غير مشروطة، إننا لانفصل عن الأشياء سوى بالحرية" (٤) ومن وجهة نظر الباحث فإن الحرية حسب فهم "سارتر" سابقة لما يسمى بحدود الحرية، كالتبيعة والمجتمع والتاريخ والثقافة وفي هذا يكمن خلاف الوجودية مع كل من البرجماتية والماركسية اللتين تؤكدان على اكتساب الحرية وتقيدها.

(1) V. Afnasyev, Marxist philosophy Op. Cit. p. 177.

(2) J.J.O. Rourke. The problem of freedom in Marxsit thought Boston. D. Reidel Publishing Company. 1974. p. 22.

(3) Ibid. P. 22.

(٤) جان بول سارتر : الوجودية فلسفة إنسانية، ترجمة حنا دميان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،

ومن ناحية أخرى ترفض "الوجودية" أسبقية الماهية على الوجود لأن هذا يعنى الحجر على حرية الإنسان وتحديد كافة صفاته مقدماً والتي لا يستطيع الفرد أن يتخلص منها ولا أن يعد لها، كما تعتقد أن مثل هذا القول السابق يعنى القضاء على الإنسان بالجبرية، بينما هي تريد للإنسان الحرية مع القدرة على اختيار صفاته كما يشاء هو نفسه، لذلك أكدت أن وجود الإنسان يسبق ماهيته، وأن الإنسان قذف به فى العالم من مصدر لم تناقش الوجودية، وعسى يوجد الإنسان يبدأ بتكوين ماهيته بنفسه ويحدد صفاته كما يشاء، وبمعنى آخر يشرع الإنسان بعد وجوده فى بناء نفسه وصنع ذاته بكامل حريته. وبهذا ذهب الوجوديون " إلى أن الحرية هي صميم الوجود الإنسانى نفسه" (١) غير أن الوجودية لم تناد بأكثر من حرية الفرد المنفصلة عن الحرية العامة للمجتمع التي نادى بها البراجماتية والماركسية. ويؤكد ذلك ما يذهب إليه الفيلسوف الوجودى بقوله: "إننى لا أستطيع وصف حرية ستكون مشتركة بين غيرى وبين نفسى، بل أقرر بنفسى ما أربغ القيام به" (٢) هذه الحرية يعتبرها الوجوديون حقيقة جاهزة أو معطى من معطيات الحس، وبعبارة أخرى هي (الموجود لذاته) ومن هنا يعدها الوجوديون جوهرأ وليست عرضاً، بمعنى أنها ليست مكتسبة أو فطرية، وهذه نقطة خلاف مع كل التيارات الفلسفية قديمها وحديثها بما فى ذلك البراجماتية والماركسية.

بالإضافة إلى المفاهيم، سألقة الذكر، هناك المفهوم التربوى للحرية الذى يعتقد أصحابه أن وظيفة التربية الحقيقية هي تنمية مفهوم الحرية والعمل على ممارستها ممارسة فعلية. ولما كان هدف التربية الأساسى هو تنمية التفكير فإن هذا يستدعى من التربية أن تعمل من أجل الحرية الإنسانية. فالتأكيد على نمو الطفل إنما هو تأكيد على تحرير قدراته العقلية من قيودها وإتاحة الفرصة له للانطلاق حتى يستطيع أن يستخدم بطريقة فعالة إمكانيات البيئة التي يعيش فيها (٣).

وبعد هذه التحليلات والتحديدات الإجرائية لمفهوم الحرية فى اللغة والفلسفة، من الممكن التمييز بصفة عامة بين نوعين من الحرية : حرية التنفيذ، وحرية التصميم أو ملكة الاختيار. والمقصود بحرية التنفيذ تلك المقدرة على العمل (أو الامتناع عن العمل) دون الخضوع لأى ضغط خارجى، أى دون الوقوع تحت تأثير قوى أجنبية. فنحن هنا بإزاء حرية طبيعية تعبر عن

(١) جون ماكورى : الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٦١.

(٢) إيزابرين : حدود الحرية، ترجمة جمانا طالب، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٣.

(٣) محمد لبيب النجى : التربية أصولها الفلسفية والنظرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٤٠١-٤٠٣.

تلقائية الكائن الناطق واستقلاله الذاتى، والحرية بهذا المعنى هى عبارة عن القدرة على المبادأة، مع انعدام كل قسر خارجى، أما حرية التصميم فهى عبارة عن ملكة الاختيار، أى القدرة على تحقيق الفعل دون الخضوع لتأثير قوى باطنة، سواء أكانت تلك القوى ذات طابع عقلى كالبواعث، والمبررات، أم ذات طابع وجدانى كالدوافع والأهواء فنحن هنا إزاء حرية سيكولوجية تعبر عن انعدام كل ضرورة باطنة وامتناع كل قسر سيكولوجى، سواء أكان مبعثه العواطف أم التصورات أم الإدراكات(١) . ويخلص الباحث مما سبق عرضه إلى نتيجة مفادها مايلى :

إن الحرية هى انعدام القسر وتوافر البدائل، ليختار الإنسان بإرادته ما يناسبه منها. ومن هذه النتيجة ينطلق الباحث فى حديثه المقبل عن الحرية فى الفلسفات المعاصرة.

وعلى الرغم من أن هذه النتيجة تنطبق على كل وجوه الحرية المذكورة آنفاً وعلى سواها، فإنه ليست المشكلة التى نحن بصددها فى هذا البحث أن نجعل الحرية فى الفلسفات المعاصرة تتسجم مع هذه النظرية أو تلك من النظريات التى تتناول مفهوم الحرية فى التربية، ولكن هدفنا هو، بيان أثر الحرية فى التربية أو لنقل أبعاد مفهوم الحرية فى الفلسفة المعاصرة على التربية، وبهذا يجد الباحث لزاماً عليه أن يقوم بمناقشة مفهوم الحرية وتحليله فلسفياً من وجهة نظر الفلسفات محور الدراسة؛ وهذا هو موضوع الفصل الثانى.

خطوات الدراسة :

وتحقيقاً لأهداف البحث ومنهجه، وفى ضوء المشكلة وأبعادها وحدودها، سارت الدراسة حسب الخطوات التالية :

أولاً : تحديد الاطار العام للبحث : وهو ما انتهى إليه هذا الفصل منها، حيث بدأ بالمقدمة والدراسات السابقة وعلاقتها بالدراسة الراهنة، ومشكلة الدراسة وأهميتها وأهدافها وحدودها، ومن ثم تم عرض المنهج المستخدم، ومصطلحات الدراسة، وخطوات السير فى الدراسة.

ثانياً : تحديد الاطار الفلسفى للبحث : وهو ما انتهى إليه الفصل الثانى، حيث تناول بالمناقشة والتحليل مفهوم الحرية فى الفلسفات المعاصرة محور الدراسة، وذلك من خلال مناقشة العلاقة بين الحرية وكل من الطبيعة الإنسانية والديمقراطية والمجتمع. وقد جاء هذا الفصل

(١) زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية، مرجع سابق ، ص ١٩.

من أجل تحقيق هدف الدراسة الأول المتمثل في الكشف عن تصور الفلاسفة المعاصرة لمفهوم الحرية في جانبها الفلسفي.

ثالثاً : تحديد الاطار التربوي للبحث : وهو ما انتهت إليه الفصول الثلاثة الأخيرة، حيث تناولت الدراسة بالمناقشة والتحليل أثر الحرية على التربية من منظور الفلاسفة موضوع الدراسة، وقد تم ذلك من خلال تحديد ثلاثة محاور تمثلت في : الحرية والطبيعة الإنسانية والتربية، الحرية والديمقراطية والتربية، الحرية والمجتمع والتربية. ومن خلال هذه المحاور تعرضت الدراسة لمناقشة أهداف التربية في إطار الحرية، وتنمية المعرفة من أجل الحرية، ومبينة أهمية الحرية والتربية الديمقراطية في المدرسة، وموضحة العلاقة بين المعلم والمتعلم، وحرية كل منهما، مشيرة إلى مبدأ تكافؤ الفرص، وضرورة وجود الحرية في التربية من أجل تقدم الفرد والمجتمع. وقد جاءت الفصول الثلاثة الأخيرة من أجل تحقيق هدف الدراسة الثاني المتمثل في الكشف عن الابعاد التربوية لمفهوم الحرية في الفلاسفة المعاصرة.

رابعاً : خاتمة ونظرة تحليلية ناقدة : حيث تناولت عرضاً لأهم الأفكار التي سبق مناقشتها، وأهم النتائج المستخلصة، بأسلوب مقارن، وبعد ذلك تم ذكر أوجه القصور في الفلاسفة التربوية محور الدراسة، بالإضافة إلى بعض سمات التربية في المجتمع العربي وضرورة أن تقوم التربية العربية على مفهوم الحرية التربوية فكراً وممارسة، وتنتهي الدراسة بتقديم رؤية عن كيفية ممارسة الحرية في التربية بشكل عام.